

لمحات من تاريخ الشيعة في لبنان

د. محمد علي مكي

ان البحث في تاريخ الشيعة في لبنان يكتنفه عدم الوضوح عند معظم اللبنانيين ،
وذلك متأثراً عن اربعة اسباب كبرى :

اولاً : عندما تكوّن لبنان بحدوده الحاضرة سنة ١٩٢٠ كان معنى ذلك الحاق جبل
عامل والبقاع وطرابلس وعكار وبيروت بمتصرفية جبل لبنان .

ولكن هذا اللاحاق لم يكن مزجاً بين المناطق ، فقد كان لمتصرفية جبل لبنان كيان
سياسي سابق وله مدارسه وتاريخه ونظمه ومؤسساته ، وله فوق كل ذلك حكومته
وادارته ، فلما تم الحاق المناطق الباقية ، وقد سميت بالفعل ملحقات ، لم يتغير من
الوضع شيء تقريباً ، اذ ظلت اسس الكيان اللبناني على حالها السابقة ، والذي تغير
بالفعل هو مساحة الدولة ، فقد اتسعت المتصرفية وصارت لبنان الكبير .

لقد كان الاتساع جغرافياً ، اما من حيث التاريخ فقد فرض على الملحقات
المسكينة تاريخ جبل لبنان فقط ، وحرمت الملحقات من درس تاريخها ، فنشأت بعد
الاستقلال اجيال لا تعرف شيئاً عن مناطقها ، وتعرف كل شيء عن تاريخ الجبل ، لذلك
حدث عند الناس ضعف في المواطنة وغموض في فهم معنى المصير المشترك .

ثانياً : تعرضت المناطق الشيعية عبر الف سنة الى كثير من الازمات ، فقد احرق
الصلبيون مكتبة طرابلس الشيعية وقضوا على ما فيها ، وقضى الصليبيون على مكنتات
صور ، ثم قضى المماليك على القرى الشيعية في كسروان ، ثم قضى الجزار على
مكنتات جبل عامل ومدارسه ، فأدى كل ذلك الى زوال ما يستند اليه في الابحاث

(*) بحث قيم للمؤرخ المعروف المرحوم د. محمد علي مكي تنفرد العرفان بنشره لأهميته التاريخية
والعلمية .

التاريخية . فغمض تاريخ الشيعة في أعين الشيعة وانقرض في أعين الآخرين وصار بالفعل من الصعب كتابة تاريخ الشيعة في لبنان لقلة المستندات والمراجع اللازمة . واذا ما وجدنا بعض المستندات لفترة معينة فاننا نجد الفراغ يحف بتلك الفترة .

ثالثا : ان كلمة شيعة لا تعني مذهبا معينا ، وهي لا تعني بالحصص المذهب الجعفري الموجود في لبنان ، ان كلمة شيعة تعني تيارا فكريا واسعا في الاسلام ظهرت منه عشرات المذاهب المختلفة ، بعضها ديني وبعضها سياسي كالزيدية والقرمطية والاسماعيلية والنصيرية والدرزية واليزيدية والبهاية والبهرية وغيرها .

هذه المذاهب تحمل جميعا الاسم العريض المميز لها ، وهو الشيعة . وتتصف هذه المذاهب بالباطنية .

ولقد أخطأ المؤرخون في الماضي ، وكانت اكثرتهم من السنة ، أنهم مزجوا ما بين هذه المذاهب واعتبروهم جميعا شيعة ، ثم اطلقوا أحكامهم عليهم كمجموعة دون تمييز او تمحيص فحملوا معتقدات بعض المذاهب لمذاهب غيرها . ثم جاء الفقهاء فارتكبوا نفس الخطأ . واننا نرى اليوم ، مع الاسف ، مؤرخين وادباء ، لا يحملون انفسهم بعض الجهد للتمييز بين مذهب وآخر .

ان الشيعة الجعفرية لها خطها المختلف عن غيرها ، ولها تاريخها المستقل فقها وسياسيا وقد اطلق الشيعة الجعفريون في الماضي على انفسهم اسم « المتأولة » حتى يتخلصوا من انعكاسات المذاهب الشيعية الباقية عليهم ، وليوضحوا لدولة المماليك اولا ثم للدولة العثمانية ثانيا انهم مستقلون عن بقية المذاهب في كل شيء . ولكن ، مع الاسف ، وبالرغم من كل ذلك ، فقد ظلت سياسة الدولة الاسلامية ومن يؤرخ لها ، تعتمد الاساءة الى الجعفرية ، وترفض إلا تحميلها وزر بقية المذاهب .

آن لنا ان نتخلص من اخطاء المؤرخين وتزويرهم ، وانني كمؤرخ ادعو مخلصا كل من يريد ان يكتب في تاريخ الشيعة ، ان يتحرى الحقيقة وان يفرق ما بين المذاهب ، والا فان التأليف في هذا الموضوع يصبح مؤامرة على التاريخ والحقيقة .

رابعا : لقد تعرض الشيعة ، بمختلف مذاهبهم ، عبر عصور التعصب العباسي والمملوكي والعثماني لضغوط ومذابح رهيبة ، جعلتهم في كثير من الاحيان معتمدون مبدأ التقية ، حفاظا على انفسهم وعلى اموالهم . والتقية مبدأ انساني يستعمله كل خائف او مظلوم . ولكن هذا المبدأ هو دفاعي في أصله ، ويتوجب على الانسان

التخلص منه في اسرع وقت . انما الذي حدث هو عكس ذلك ، فقد طالت عصور الظلم والاضطهاد ، وطال معها عصر التقية ، حتى تغير مفهوم التقية فصارت خطة عمل بدلا من ان تكون خطة دفاع . وقد استغلت العهود الحاكمة العباسية والمملوكية والعثمانية وجود هذه التقية فساوت ما بين المذاهب الشيعية المختلفة وحكمت عليهم نفس الحكم وعاملتهم نفس المعاملة .

التقية ليست خطة عمل ، ولا ينبغي لها ان تكون كذلك ، انها كانت خطة دفاع في ظروف قاهرة مضت الى غير رجعة ، كانت التقية سلاحا للنجاة استعمله اهل الشيعة ، ثم انقلب عليهم هذا السلاح ، فشوه لهم مذاهبهم وأساء اليهم في انفسهم وفي اموالهم . وتاريخ الشيعة في لبنان شاهد على هذه المأساة .

ولا بد لي قبل ان انهي هذه المقدمة من توضيح نقطة اخرى كانت موضع أخذ ورد عند بعض المؤرخين .

لقد قيل عن شيعة لبنان الجعفرية انها من اصل فارسي ، وان الشيعة في لبنان ليسوا عربا كما قال الاب لامنس اليسوعي في كتابه : « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من آثار » الجزء الثاني ، صفحة (٤٩) اذ ورد على لسانه ما يلي : « نجد في لبنان قوما من الشيعة كالماتولة والنصيريين توطنوا الجبل وبسطوا عليه سطوتهم ، وخلقوا فيه آثاراً تنبئ بصحة ما سطره المؤرخ اليعقوبي ، ومن جملة هذه الآثار ما نراه في بعض اهل لبنان من هيئة الجسم وتقاطيع الوجه وسحنة البشرة التي يعرف بها العجم » .

ان هذا القول مردود ، ذلك أن جبل عامل بشكل خاص وجبل عامل والبقاع بشكل عام كانا موطن القبائل العربية قبل الاسلام . لقد كانت قبيلة عاملة وهي التي اعطت اسمها لجبل عامل تبسط نفوذها تحت الحكم الروماني البيزنطي على شمالي فلسطين وجنوبي لبنان ، كما كان الغساسنة في الجولان وحوران . وقد حارب العامليون الى جانب البيزنطيين ضد الاسلام ، ثم نزح قسم منهم الى بلاد البيزنطيين بعد معركة اليرموك وهزيمة الروم .

لقد كانت البلاد اذن عامرة بالسكان العرب ، وعندما استلم معاوية الامارة ثم الخلافة استقدم بعض الجاليات الفارسية واسكنها في مدن الساحل من طرابلس الى صيدا لغايتين : الأولى حماية الساحل من غزوات الاسطول البيزنطي نظراً للعداوة الشديدة بين الفرس والبيزنطيين ، والثانية لمنع الاتصال بين البيزنطيين والقبائل العربية ، وخاصة عاملة التي كانت تناصب الاسلام العداوة .

ان التركيز على وجود هذه الجاليات الفارسية في سواحل لبنان والاستنتاج ان الشيعة فيما بعد هم أحفاد اولئك الفرس ، هما مغالطة وتحميل الشيء ما لا يحمل . لماذا التركيز على هذه القلة والاهمال المقصود للكثرة التي هي قبائل عاملة . ان شيعة لبنان الجعفرية هي من حيث اصلها العربي اصفى الجماعات المكونة لهذا الوطن .

ولكن وحدة المذهب بين هذه الطائفة في لبنان وفي ايران جعلت العلاقات تصبح وطيدة بين البلدين منذ اكثر من ستمائة سنة .

فالذي ضاعوا في فهم هذه العلاقات نقول : ان الصلة بين شيعة لبنان الجعفرية وشيعة ايران هي صلة مذهبية روحية ولم تكن عنصرية في اي وقت من الاوقات .

مراحل التاريخ الشيعي في لبنان

يتناول هذا القسم النقاط التالية :

- ١ - بذور التشيع الاولى في لبنان في العهد الاموي .
- ٢ - الشيعة والحركات الباطنية في لبنان في العصر العباسي الاول .
- ٣ - الشيعة في لبنان بين الحمدانية والفاطمية في العصر العباسي الثاني .
- ٤ - الشيعة في العصر الصليبي .
- ٥ - الشيعة في لبنان في العصر المملوكي .
- ٦ - الشيعة في لبنان في العصر العثماني .
- ٧ - الوضع الراهن للشيعة في لبنان .

١ - بذور التشيع الاولى في لبنان في العهد الاموي :

اذا اخذنا التشيع في مهده بمعنى موالاته الامام علي ، كرم الله وجهه ، فيكون ابو ذر الغفاري اول متشيع قدم الى جنوبي لبنان كما ورد في كتاب « امل الأمل في علماء جبل عامل » فقد ذكر عن هذا الصحابي الثائر ان عثمان بن عفان الخليفة الثالث ابعده الى الشام ، ثم ان معاوية والي الشام ابعده الى القرى ، فنزل في قرى جبل عامل التي كانت ما تزال على مسيحيتها القديمة ، فبث فيهم الاسلام المتشيع . وتروي الروايات انه اقام في ميس الجبل وفي الصرند . وبالفعل يوجد في هاتين القريتين الى وقتنا الحاضر مسجداً على اسم ابي ذر الغفاري .

إذا صحت هذه الروايات وكان التشيع بمعنى الموالاة فقط ، فإن الاسلام يكون قد دخل لبنان متشيعا منذ ولاية معاوية على بلاد الشام ، اي منتصف القرن السابع للميلاد .
اما اذا اتخذنا التشيع بمعنى المذهب الجعفري المتكامل عقيدة وفقها ومسلكا ، فإن الامر يختلف ، ويصبح التشيع من نتاج العصر العباسي الاول اي من منتصف القرن الثامن الميلادي .

وأرى شخصا ان الرأي الاول ضعيف ، وان ثبت ، ذلك لان المناطق اللبنانية بصورة عامة والسواحل بشكل خاص ، وضعت في العهد الاموي تحت رقابة شديدة من قبل الدولة الاموية ، اذ كانت مدن الساحل مراكز للاسطول الاموي ، وكانت المناطق الداخلية مراكز اصطيفاهم . لذلك يستبعد ان يقوم التشيع في عقر دار الدولة الاموية وفي ايام عزها .

وعلى هذا الاساس أرى ان التشيع في لبنان لم يظهر بالمعنى الصحيح للكلمة الا في العصر العباسي الاول على الاقل ، حين ابتعد مركز الدولة عن لبنان واصبح في العراق ، وصار لبنان في اطراف الدولة فبرزت قيمته الاستراتيجية كمنطقة التجاء للخائف من الدولة او للثائر عليها .

٢ - الشيعة والحركات الباطنية في لبنان في العصر العباسي الاول :

تبلور المذهب الشيعي الجعفري في مطلع العصر العباسي الاول في العراق على يد الامام جعفر الصادق . اما في لبنان ، فلا يوجد أي اثر يدل على انتشار التشيع في هذه الفترة ، وبالعكس فإن كل الدلائل تدل على ان المذهب الديني الذي ساد ابتداء من هذه الفترة كان المذهب الاوزاعي الذي تميز بالاعتدال .

لقد كان العباسيون يعتقدون انهم خلافا للامويين سيبنون الدولة الاسلامية الصحيحة ، ولكن التطبيق العملي جاء مخالفا لمقصدهم ، فساءت الاحوال الاقتصادية تدريجيا وانعكس ذلك على الاوضاع الاجتماعية فظهر الغنى الفاحش وبرز مقابله الفقر المدقع ، وبدا أن المفهوم العملي للدين قد اسيء فهمه من قبل العباسيين ، فتحركت قوى كثيرة في انحاء الامبراطورية العباسية تحاول اصلاح الدولة او تغييرها . وقد لبست هذه الحركات والقوى لباس الدين واتخذت من الشعار الشيعي ستارا . ونقمت هذه الحركات على العباسيين حتى أن الثائر المشهور بابك الحزمي كان يقول عن العباسيين انهم يهود وليسوا مسلمين .

قامت ثورات الزنج والبابكية ثم تلتها الحركة الاسماعيلية الواسعة النطاق ، وانبثق عنها الحركة القرمطية التي كادت تقضي على العباسيين . وقد تميزت الحركة الاسماعيلية والقمرطية بالتنظيم الرائع وانشاء الخلايا في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، وتميزت الحركة القرمطية بانها كانت مبنية على الاساس النقابي ، وعلى مبدأ الملكية الجماعية وان لكل فرد ما يحتاج اليه . هذه الحركات القوية والواسعة انتشرت بسرعة في صفوف شعوب الامة الاسلامية ، بينما كان سلطان العباسيين ينهار بسرعة وتفكك الدولة تدريجيا وتسليخ مصر فتصبح بايدي الطولونيين ثم الاخشيديين وكذلك فلسطين ولبنان وسوريا ، وتسليخ ايران لتصبح بايدي البويهيين .

اذن كانت الدولة العباسية في انهيار ، بينما كانت الاحزاب والفرق في اوج نشاطها ، واعتبر العباسيون ان كل من كان على غير السنة فهو شيعي رافضي ، ووصموه بالكفر تارة وبالزندقة طورا . وقبلت الاحزاب المناوئة للحكم العباسي هذه التسمية فاصبحت جميعا تحمل اسم الشيعة .

وفي هذه الغمرة من الفوضى في الحكم والتجزئة في السيادة ، والتعدد في المذاهب والمعتقدات حافظت الشيعة الجعفرية على خطها المعتدل ، فتعرضت لنقمة مزدوجة من العباسيين والباطنيين ، بعد قرن ونصف القرن فقط من بدء الحكم العباسي كان وضع العالم الاسلامي على هذه الصورة . وتحرك القرامطة من مناطق الخليج العربي والجزيرة العربية ، فبنوا دولتهم الاشتراكية ثم غزوا الاردن وسوريا ولبنان بقيادة صاحب الشامة سنة ٩٠١ ميلادية ، فتقرط الناس على يديه ، وفهموا الباطنية ، وانهى صاحب الشامة بمذهبه الجديد ما كان قد اوجده الامام الاوزاعي من قبل في لبنان .

ان اول منطقة تأثرت بالباطنية في لبنان كانت منطقة وادي التيم ، ومنها انتقلت الى جبل عامل والى بعلبك . لقد قاومت هذه المناطق اللبنانية في البدء دعوة صاحب الشامة الحسين الملقب بأحمد والمعروف بالمهدي ، ثم استكانت لحكمه ، وجعل المهدي هذا من بلدة سلمية في سوريا عاصمة لدولته .

ولقد تمكن العباسيون من قهر القرامطة والقضاء على دولتهم في سوريا ولبنان وفلسطين ، ولكن اثرهم الفكري بقي بعدهم . ويعود سبب فشل القرامطة الى التحالف الشيعي الجعفري المتمثل بالحمدانيين ، مع العباسيين المتمثلين بالدولة الاخشيديية .

٣ - الشيعة في لبنان بين الحمدانية والفاطمية في العصر العباسي الثاني :

لم تنجح الدعوة الاسماعيلية في سوريا في تكوين دولة تكون بديلا للعباسيين ، فتسربت الى المغرب حيث ظهرت باسم الدولة العبيدية او الفاطمية ، وتمكنت سنة ٩٦٩ ميلادية من احتلال مصر وعلان الخلافة الشيعية ، ثم توسعت الى فلسطين ولبنان وسوريا ، جاعلة المذهب الشيعي الاسماعيلي اساسا للدولة والحكم .

وقامت الامارة الحمدانية في شمالي سوريا تعلن نفسها امارة شيعية جعفرية وتوسع في جنوبي سوريا ولبنان .

في هذه الفترة اي منذ اواسط القرن العاشر للميلاد اصبح لبنان باكثره الساحقة متشيعاً كما يلي :

جبل عامل وسواحل وادي التيم والبقاع وعكار وطرابلس مناطق شيعية : جعفرية واسماعيلية باطنية . اما المتن وبيروت فعلى مذهب اهل السنة ويسكن فيهما التنوخيون الذين اخلصوا دائما للدولة العباسية . واما في البترون ومنطقة بشري فقد كان الموارنة يتركزون فيهما منذ حوالي ثلاثة قرون سابقة : ثم ظهرت دعوة الموحدين ايام الحاكم بامر الله فاتبع الدعوة فريق من الشيعة في وادي التيم ، وكونوا طائفة جديدة وهي التي عرفت فيما بعد بالدروز ، وتمكنت من ان تتسرب الى المتن حيث تقبل التنوخيون الدعوة الجديدة . ولعل أبلغ وصف لوضع الشيعة في لبنان في هذه الفترة اي نهاية الالف الاول بعد الميلاد ما جاء في كتاب سفر نامة للرحالة الاسماعيلي المشهور ناصري خسرو ، فقد قال عن المدن اللبنانية ما يلي :

« ارياض طرابلس تملأها البساتين ، وقصب السكر ينمو هنا بكثرة ومثله البرتقال والليمون والتمر . وقد كانوا ايام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر . وفنادق المدينة تتألف من اربع طبقات او خمس ، وقد تصل الى ست ، وبيوتها واسواقها حسنة البناء نظيفة . . . وفي المدينة مكاتب لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة الى المدينة من بلاد الروم او الغرب او غيرهما . . . وللسلطان اي امير المدينة سفن تحمل تجارته الى بيزنطية وصقلية والغرب واهل طرابلس كلهم شيعة .

وصيدا اسواقها بهية الزينة حتى ظننت انها زينت لمناسبة قدوم السلطان او لامر آخر سار ، فلما استقصيت عرفت ان ذلك امر عادي . . . واما صور فننادقها ذات خمس طبقات او ست ، وشوارعها نظيفة تدل على الثروة الهائلة . وصور معروفة بغناها وقوتها بين المدن الشامية الساحلية ، واكثر سكانها شيعة ، لكن قاضيها سني . »

في اواسط القرن الحادي عشر ضعفت الدولة الفاطمية واصبحت عاجزة عن حكم المناطق البعيدة ، كما ان الامارة الحمدانية انقرضت واستولى على حلب بنو مرداس وهم شيعة . فاستغل هذه الفرصة اميران لبنانيان احدهما القاضي ابن عمار فاستقل بطرابلس وحولها الى امارة شيعية ، والآخر هو ابن عقيل الذي استقل بصور وحولها كذلك الى امارة شيعية .

وكانت معظم المناطق اللبنانية قد اصبحت متشعبة ، إما بالباطنية كما هو امر الدرزية والنصيرية واما بالظاهرية كما هو امر الجعفرية الامامية . وتعتبر هذه الفترة اي اواسط القرن الحادي عشر الميلادي ذروة المد الشيعي في لبنان وفي سوريا .

ولا بد هنا قبل الانتقال الى مرحلة الجزر الشيعي من القاء نظرة عامة على الامارات الشيعية في لبنان في هذا القرن .

اما امارة بني عمار فقد امتد نفوذها من عكار في الشمال الى جبيل في الجنوب ودامت حوالي ٥١ سنة اي منذ ان استقل بها قاضيها ابو طالب بن عمار حتى سقطت بيد الصليبيين سنة ١١٠٩ ميلادية ، وقد حكم بعد ابي طالب بن عمار ابن اخيه ابو علي فخر الملك .

اشتهر بنو عمار في الشمال بتشجيعهم للعلم والعلماء فاوجدوا مكتبة عظيمة قيل انها كانت تضم مائة الف مجلد ولكن الصليبيين احرقوها ففقدوا بذلك على ثروة عظيمة كانت تمثل الى حد كبير التراث الشيعي حتى ذلك الحين . كما فتحوا البلاد للعلماء ورجال الفكر ، على غرار ما كان قد فعله سيف الدولة في حلب سابقا . ومن الذين ترددوا على مكتبة بني عمار في طرابلس ابو العلاء المعري واهتم بنو عمار بالنواحي الاقتصادية فازدهرت امارة طرابلس ازدهارا كبيرا في ايامهم ، حتى اننا ما نزال الى وقتنا الحاضر نطلق على نهر طرابلس اسم نهر ابي علي بسبب المشاريع التي اوجدها ابو علي فخر الملك حول هذا النهر .

اما امارة بني عقيل في صور فقد ازدهرت كثيرا ، الا ان حظها لم يكن كطرابلس اذ تمكن الفاطميون من القضاء عليها بسرعة ، وكان ابن عقيل على مذهب السنة بالرغم من أن الأكثرية الساحقة منها كانت شيعية . واما شيعة البقاع فبالرغم من ان بعلبك كانت تجمعهم الا انهم لم يتمكنوا من تأسيس امارة قائمة ومنفصلة عن دمشق .

لقد قلت ان المد الشيعي ظل مطردا حتى اواسط القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم بدأ الجزر بقيام دولة بني مرداس في شمالي سوريا ، وبنو مرداس كانوا من الموحدين

الدروز ثم عادوا الى الجعفرية ، وقد بسطوا نفوذهم على شمالي سوريا ثم وصلوا الى البقاع ، ويبدو أنهم وصلوا كذلك الى جبل عامل ، ولكنهم كانوا متقلبين ، اذ ما ان احساسوا بالتحرك التركي السلجوقي في العراق وايران ، حتى اخذوا يضغطون على الشيعة لتغيير مذهبهم . وأروي هنا القصة التالية عن الامير محمود بن صالح بن مرداس أنه طلب من المصلين في الجوامع ان تكون الخطبة ويكون الدعاء للخليفة العباسي في بغداد ، فوافق علماء الشيعة ، واما عامة الشعب فرفضت واخذت تجمع الحصر من الجوامع وقالوا للامير بن مرداس : هذه حصر علي بن ابي طالب فليات ابو بكر بحصر يصلي عليها الناس .

ثم كانت سنة ١٠٧٠ سنة الغزو الكبير ، الغزو السلجوقي الذي استهدف ضرب الشيعة بجميع مذاهبها ، وضرب الدولة البيزنطية . بالفعل نجح السلاجقة فقد ضربوا شمالي سوريا وقضوا الى حد كبير على التشيع فيها ، ثم ضربوا الشام بعنف بالغ لان اكثريتها كانت متشيعة ، وقيل ان عشرة آلاف نسمة قتلوا في يوم واحد في دمشق .

اما امارة بني عمار فقد نجت من الانتقام السلجوقي ، ولكن البقاع هوجم وسقطت بعلبك ، فقضي على كثير من الشيعة ، ثم انحسرت الشيعة البقاعية الى الجبال فاستوطنت كسروان ، كما استوطنت شيعة عكار والمناطق الجبلية المجاورة وهي التي عرفت فيما بعد باسم جبال الضنية اي جبال اهل الظن ، والمقصود بهم الشيعة الباطنية . اما شيعة الجنوب وجزين فلم يلحق بهم نفس الادي . وقبل ان يستفيق الناس من الضربة السلجوقية بدأ الغزو الصليبي من الغرب ، سنة ١٠٩٨ .

٤ - الشيعة في العصر الصليبي :

في ربيع قرن من الزمن ، وهو الربع الاخير من القرن الحادي عشر الميلادي عرفت الشيعة في لبنان ضربتين هائلتين : الاولى من الشرق وهي ضربة السلاجقة ، والثانية من الغرب وهي ضربة الصليبيين .

في الضربة الاولى سقط الداخل وسلم الساحل ، وفي الضربة الثانية سقط الساحل فاحتلت الشيعة بالجبال .

لقد صمد الشيعة في طرابلس امام الصليبيين عشر سنوات ، حاولوا خلالها التفاهم ولكن الصليبيين كانوا دعاة سيطرة وحكم وليسوا جماعة تفاهم . وسقطت امارة بني عمار

بعد عشر سنوات من الحصار المبرر ، ويسقط هذه الامارة انقضت الشيعة في الشمال ، وانقرض معها التراث الفكري الكبير الذي كان متمثلا بمكتبته .

ثم انتقل الصليبيون الى الجنوب فسقطت صيدا وسقط جبل عامل ولكن صور صمدت امام الحصار الصليبي ربع قرن بكامله ، اي منذ سنة ١٠٩٩ الى سنة ١١٢٤ ميلادية . وبذلك تكون صور الشيعية قد ضربت اروع الامثلة في الصمود امام حصار البر والبحر معا ، وحل الصليبيون في الساحل اللبناني ، فاصبحت الشيعة بذلك منحصرة في جبل عامل واقليم جزين واقليم كسروان ، وتسربت مجددا الى البقاع مبتعدة عن الاخطار الصليبية .

وتكاثرت الشيعة خلال العهد الصليبي مستغلة وجودها في الجبال خارج النطاق الصليبي في الساحل ، وخارج النطاق السلجوقي في البقاع والداخل . وبالرغم من خسارة الشيعة للساحل اللبناني بسبب السيطرة الصليبية ، فان الشيعة الباقية عاشت حوالي القرنين بعد ذلك بعيدة عن اي ضغط واضطهاد ، مما اتاح لها فرصة التمرکز والنمو . ذلك ان الصليبيين لم يتدخلوا في الشؤون الدينية الاسلامية ، ولم يتحزبوا ضد اي من المذاهب الشيعية المختلفة .

وقد جاء في وصف للرحالة الاندلسي ان جبير الذي زار هذه البلاد اثناء الحروب الصليبية قوله : « للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي الامنة على غاية ، وتجار النصارى ايضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلهم . والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب » .

خلال فترة الحروب الصليبية تقلصت الشيعة في العالم ، فالسلاجقة شتوا الشيعة في ايران والعراق وسوريا . وصلاح الدين قضى على الشيعة والتشيع في مصر والجزيرة العربية وفي شمال سوريا . فما ان انتهت الحروب الصليبية على ايدي سلاطين المماليك حتى كان لبنان فقط يمثل الجزيرة الشيعية المتماسكة في المنطقة بكاملها .

٥ - الشيعة في لبنان في العصر المملوكي :

اتخذ المماليك سياسة لهم هي توحيد المذاهب الاسلامية السنة ، وافق ابن تيمية ان قتال الرافضة اوجب من قتال الأرمن ، واهدر ابن تيمية دماء الشيعة ، فكانت مجازر كسروان الرهيبة بين سنتي ١٣٠٥ و ١٣٠٧ على يد اقوش نائب السلطان المملوكي في دمشق .

وفرغ كسروان من الشيعة ، وحلّ المواردنة تدريجيا محلهم ، كما اسكن المماليك قبائل تركمانية في المنطقة هم آل عساف ، قال الاب الامنس : في كتابه تسريح الابصار (ج ٢ ص ٥٧) :

« وان سأل القارىء ومن كان يسكن اذن كسروان قبل هذا العهد ، اجبنا ان معظم اهل هذه الناحية كانوا من المتأولة او من النصيريين . وكان النصيريون قاطنين ايضا في بعض نواحي لبنان الشمالية كجهات البترون ونواحي المنيطرة والعاقورة ، ولكن عددهم الاوفر اينما كان في كسروان » الى ان يقول (ص ٥٧) .

« اننا نعلم بلا ريب ان النصارى لم يحتلوا هذا الجبل قبل القرن الخامس عشر » .

في القرن الرابع عشر تحسنت اوضاع لبنان الاقتصادية وبخاصة الاوضاع الزراعية ، وساعد التنظيم الاقطاعي على هذا الازدهار ، وبدأ شكل لبنان الطائفي يتبلور تدريجيا ، من حيث التوزيع السكاني وصلات الطوائف ببعضها البعض . لقد انحسرت الشيعة العلوية الى بلاد العلويين وتمركزت الشيعة الجعفرية في جبل عامل وجزير والبقاع ، واخذت بعلبك تتحول الى مركز الشيعة البقاعيين . وبقي في كسروان ومنطقة جبيل وساحل بيروت ، وبعض المتن بقايا من الشيعة الجعفرية ولكن الضغط الديني ظل مفروضا على الشيعة ، فقد حرموا من حق الافشاء ، وكان عليهم ان يطبقوا احكام المذاهب الاربعة فقط .

ولمعت جزين في القرن الرابع عشر واشتهرت بعلمائها حتى قيل انه حضر جنازة احد الجزينيين سبعون عالما مجتهدا ، واشتهر مع جزين فقيهها العظيم الشهيد الاول محمد بن مكي الذي قضى عليه جور المماليك ايام الظاهر برقوق في دمشق ، ومن روائعه انه كتب كتابه المشهور « اللمعة الدمشقية » بسبعة ايام في السجن دون ان يكون لديه مراجع . وهذا الكتاب « اللمعة الدمشقية » يعتبر مرجعا رئيسيا للفقه الشيعي الجعفري الى وقتنا الحاضر ، ويروى عن الشهيد الاول انه حارب بنفسه اهل البدع والباطنية وقتل المالوشي الذي سيطر على كثير من الناس بسحره وباطنيته . وكان من نهضة جزين العلمية ان ابنة الشهيد الاول فاطمة ، برزت في العلوم الدينية حتى اصبحت مرجعا باجازه من والدها لجميع الشؤون النسائية .

وتدريجيا وابتداء من القرن الخامس عشر يبدأ تاريخ الشيعة الجعفرية بالوضوح ، فقد كانت شيعة جبل عامل مقسمة الى ثمان مقاطعات عواصمها هي : بنت جبيل وتبنين

وقانا وصور والنبطية وانصار وجباغ وجزين . وتعرف المقاطعات الاربع الاولى باسم بلاد بشارة نسبة لحسام الدين بشارة كما قيل وهو من حكام صلاح الدين . وقد حكمها منذ اواسط العهد المملوكي اي منذ القرن الخامس عشر بنو علي الصغير وهم المنتسبون الى وائل من عرب السوالمه .

اما المقاطعات الاربع الشمالية الواقعة شمالي الليطاني فكان عليهم بنو صعب في منطقة الشقيف والمناكرة في الشومر والتفاح والمقدمون في جزين .

وقد كان حكم هذه المناطق اقطاعيا ويتبع مدينة صيدا مباشرة وتتبع كلها لنيابة السلطنة في دمشق .

اما في البقاع فكانت بعلبك في القرن الخامس عشر قد اصبحت ركيزة للشيعة بالرغم من ان سكانها لم يكونوا جميعا من الشيعة وبرزت في منطقة بعلبك عائلة آل حروفش الشيعية التي ظلت تنمو وتلعب ادوارا سياسية في اقطاع المنطقة حتى ايام فخر الدين المعني . وكانت العشائر الحمادية قد سيطرت كذلك على الهرمل ، وبسطت نفوذها في المناطق الجبلية في جبة المنيطرة وجبل والفتوح والبترون .

في هذه الفترة ابتدأت الشيعة الجعفرية تزدهر وتكثف في لبنان اقتصاديا وثقافيا ، كما يبدو ان وطأة الضغط الديني التي مارسها المماليك في بدء حكمهم اخذت تخف تدريجيا ، وربما ان ذلك يعود الى التصفية القاسية التي مرت بها الشيعة عموما في لبنان حتى تخلصت من الباطنية .

وهكذا تحول النظام الاقطاعي من المناطق الشيعية الى نوع من الحكم الذاتي الوراثي ، فاعادت للشيعة الجعفرية شيئا مما كان لهم في العهود السابقة .

٦ - الشيعة في لبنان في العصر العثماني :

دخل القرن السادس عشر ، وانتقل الحكم في البلاد من ايدي المماليك الى ايدي العثمانيين . بالرغم من التعصب العثماني ضد الشيعة ، فان شيعة لبنان ظلت ماضية في ازدهارها وبنائها لنهضة فكرية رائعة برزت في العديد من المدارس الكبرى التي نشأت في قرى جبل عامل والبقاع اذكر منها مدرسة ميس ومدرسة شقراء وبعلبك وكرك نوح ، ثم عشرات المدارس الكبرى في ما بعد . كما نبغ علماء كبار في مختلف العلوم الدينية والعلمية كالشهيد الثاني والبهائي .

وبرزت اهمية الشيعة في مطلع العهد العثماني ان علماءهم تزعموا النهضة

الفكرية والعلمية في العراق وايران والهند .

أي انه في الوقت الذي كان الموارنة يقصدون اوروبا لاختذ العلم ، كانت الشيعة تقوم بدور العطاء في الشرق .

اما من الناحية السياسية فقد ظل النظام الاقطاعي سائدا وبالتالي فان الحكم الشيعي الذاتي ظل قائما بالرغم من المطامع التي اظهرها المعنيون والشهابيون امراء الشوف تجاه الشيعة .

لقد اعتمد فخر الدين الثاني على الشيعة اعتمادا كبيرا ، فكانت قلاع الشيعة ملجأ للامير في محتته ، واعتمد على فرسان الشيعة في معركة عنجر الشهيرة التي انتصر فيها على والي الشام ، العثماني ، فبينما قدّم الدروز لتلك المعركة الف فارس وقدّم الشهابيون الفي راجل ، قدّم شيعة الجنوب الفي فارس .

وقد بلغت الشيعة من القوة في عهد فخر الدين ما سمح للامير يونس حروفش امير بعلبك ان يفكر ويعمل على ان تكون له الزعامة في لبنان .

هذه المنافسة بين الشيعة والدروز على الحكم اخذت تشتد وتعنّف بعد المعنيين فقد حاول الوائلون بنو علي الصغير ان تكون لهم الامارة بعد المعنيين سنة ١٦٩٧ ، في السبقانية ، لأنهم اعرق قيسية من الشهابيين واولى من آل علم الدين . وفشلت الشيعة في انتزاع الامارة بسبب المذهب والتعصب العثماني . وسبب ذلك الاصطدامات الدموية الكثيرة التي حدثت بعد ذلك بين الشيعة والشهابيين .

ان الذي يطالع تاريخ الشهابيين في القرن الثامن عشر يلاحظ ان هم هؤلاء الامراء من الامير ملحم الى الامير يوسف ، لم يكن سوى اخضاع الشيعة والسيطرة على بلادهم ، وما معارك الغازية وانصار وكفر رمان الآ صورة عن هذه المطامع . وقد آلب الامير ملحم دروز الشوف ، وبخاصة دروز نبحا حتى فتكوا على حين غرة بشيعة جزين ، واستولوا على البلدة ، وكان ذلك آخر العهد بتشيّعها .

ولم يتعدى نجاح الامراء الشهابيين اخذ جزين ، اذ وقف الشيخ ناصيف النصار وهو شيخ مشايخ الشيعة يؤلف اتحادا اقطاعيا من زعماء الجنوب لصدم مطامع الشوف . وتمكن هذا الشيخ القوي من محافة الشيخ ظاهر عمر الزيداني حاكم عكا ، فكان عصره في الحقيقة هو العصر الذهبي لجبل عامل . لقد رمّم القلاع واهتم بالزراعة وبالمدراس فكثرت في ايامه ، كما كثرت المكتبات . فلما قضي على الشيخ ظاهر عمر واستبد الجزار بالحكم فتك بالشيخ ناصيف ، ثم فتك بالشيعة فدمر مدارسهم واحرق قراهم وحمل مكباتهم الى

عكا ، حيث قيل ان افران عكا ظلت توقد سبعة ايام بكتب الشيعة من جبل عامل .

واخضع الجزار جبل عامل ، حتى اذا ما مات قام الشيخ فارس بن ناصيف النصار بالثورة فتمكن من اعادة الحكم الذاتي التقليدي الذي كان عليه الجبل من قبل ، ثم فقد جبل عامل حكمه الذاتي في ايام حكم ابراهيم باشا حتى اذا ما انتهى قام حمد البك باعادة ذلك الحكم الذاتي وشجع المدارس والعلماء وكذلك فعل من بعده محمد بك الاسعد ، واهم مدارس هذه الفترة : مدرسة الكوثرية ومنها تخرج العالم المشهور الشيخ عبد الله نعمه ومدرسة جبع وميس الجبل وحنوية وشقرا والنميرية والنبطية .

وقد اظهر الشيعة في الجنوب عطفًا على مسيحيي جبل لبنان حين وقعت الفتن الطائفية بين الموارنة والدروز وبخاصة فتنة ١٨٦٠ ، اذ حمى الشيعة المسيحيين وساعدوهم حتى ان محمد بك الاسعد جمع الف فارس وحاول بهم غزو الشوف انتقاما لولا تدخل الوالي العثماني خورشيد باشا .

وحين ذهب عهد الامارة في جبل لبنان ، ذهب عهد الحكم الذاتي للشيعة في الجنوب ، فقد فرض على الشيعة الحكم العثماني المباشر الذي غلّ يدهم وشل نشاطهم .

وكما حمل نظام المتصرفية الذي وضع لجبل لبنان الحماية الاجنبية والتدخل ، فان كثيرا من شيعة جبل عامل والبقاع اخذوا يفتشون عن حماية لهم ، فوجدها بعضهم في الدولة الايرانية ، ورأى بعضهم ان تكون الثورة على الاتراك هي الحماية في سبيل دولة عربية كبرى تحمي نفسها وتحمي ابناءها .

٧- الشيعة في القرن العشرين

كانت الحرب العالمية الاولى قاسية على الشيعة في لبنان ، فقد جند الرجال للحرب ، واجتاحت المجاعة العجز والنساء والاطفال ، فنزح الى المهاجر عدد كبير منهم وفي غمرة هذه الحرب قامت الثورة العربية ، فتعلق بها الشيعة واعتبروها باب الامل والنجاة ، وحين دخل فيصل دمشق كانت الشيعة الجعفرية في لبنان ، من الجنوب والبقاع ، سبّاقة الى الانضمام الى الدولة العربية الجديدة التي كان فيصل يعمل على تكوينها . فقد تلقى محمود الفضل من النبطية في اول تشرين اول سنة ١٩١٨ ، برقية من دمشق موقعة من الامير محمد سعيد الجزائري رئيس الحكومة تقول بالحرف الواحد :

« بناء على انسحاب الحكومة التركية قد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على

دعائم الشرف ، طمنوا العموم ، وعليكم ان تعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية .

واجتمع في ٥ تشرين اول ١٩١٨ ، في النبطية اعيان الشيعة في الجنوب برئاسة كامل بك الاسعد ولكن سرعان ما وصلت قوات الحلفاء الى صيدا فتفاجأ الفرنسيون بالتجمعات والتظاهرات المؤيدة لفیصل ، فنشر الحلفاء في ساحة النبطية اعلانا نصه :

« باسم القائد العام لجيوش الحلفاء الثلاثة انكلترا وفرنسا والشرفاء يمنع الاجتماع العام والمظاهرات السياسية من اي نوع كانت . ومن خالف ذلك عد مسؤولا ومستهدفا للجزاء » .

اما شيعة البقاع فوقفت كذلك الى جانب فیصل وبرزت عائلة حيدر متزعمة هذا التيار وتدرجيا ازدادت سيطرة الفرنسيين ، وازداد التضييق على الشيعة فشعروا انهم على حافة الانتقال الى الخضوع ، للحكم الفرنسي ، فاضطربت البلاد ، وانتشرت الدعوة الى الثورة وعلقت المناشير تدعو الناس الى مقاومة الفرنسيين المحتلين وطردهم من البلاد . وبالفعل تألفت العصابات المسلحة من اهالي البلاد وابتدأت المقاومة المسلحة تضغط على الموظفين لعدم التعاون مع الفرنسيين ، وتمنع الاهالي من دفع الضرائب لحكومة الاحتلال ، وقاد حركة المقاومة الشعبية هذه صادق حمزة .

وعمل الفرنسيون بسرعة على ضرب هذه الحركة الشعبية ، فحركوا النزاع الطائفي بين الشيعة والمسيحيين وهو امر لم يحدث من قبل . وسلح الفرنسيون المسيحيين فتكونت عصابات منهم لارهاب القرى الشيعية .

وتنادى زعماء الشيعة في الجنوب وعلماءها الى مؤتمر عام لدرس الموقف . وعقد المؤتمر في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ على رأس نهر الحجير برئاسة كامل بك الاسعد . واتخذ المؤتمر قرارا تاريخيا هاما هو التالي :

« ان المؤتمرين قرروا بالاجماع انضمامهم للوحدة السورية ، والمناداة بجلالة الملك فیصل ملكا على سوريا ، ورفض الدخول تحت حماية او انتداب الفرنسيين » .

وقد حمل هذا القرار السيدان العالمان عبد الحسين نور الدين وعبد الحسين شرف الدين الى دمشق .

ولكن بعد اسبوعين فقط من مؤتمر الحجير ، وجه الفرنسيون حملة كبيرة على جبل عامل بقيادة الكولونيل نيجر ، وذلك بحجة حماية المسيحيين ، فاحرق الفرنسيون تبين وبنيت جبيل وهدمت بيوت زعماء مؤتمر الحجير ، وحاولت القاء القبض على كامل بك

الاسعد رئيس المؤتمر فهرب الى دمشق .

ثم عمد الفرنسيون الى جمع علماء الشيعة واعيانهم في صيدا حيث اسمعهم القائد الفرنسي اقصى الكلمات واعنف التهديد .

وسقطت في تموز حكومة فيصل في دمشق ، واعلن الفرنسيون في آخر آب ١٩٢٠ قيام دولة لبنان الكبير ، وذلك بالحق المقاطعات او الملحقات الاربع لجبل لبنان تحت الانتداب الفرنسي . حين اعلن قيام « دولة لبنان الكبير » التي تضم جبل عامل ، كان الجنود الفرنسيون يجمعون السلاح والذهب من الاهالي في الجنوب ويطاردون اعيان البلاد لاعتقالهم . فلا عجب اذا وقفت الشيعة من دولة لبنان الكبير موقفا عدائيا . انها كانت تقف في الحقيقة ضد فرنسا المسترة بالانتداب وراء الكيان الجديد . وكان الكيان الجديد ، بالنسبة الى الشيعة مولودا فرنسيا وليس وطنيا ، فكيف يقبلون به ولم يكن قد مضى على مؤتمريهم في الحجير اكثر من اربعة اشهر فقط .

وبالرغم من ان فرنسا اطلقت حرية المذاهب ، وشعرت الشيعة لأول مرة بعد مئات السنين انها حرة في قضائها ، وحررة في عبادتها ، وحررة في رسم شخصيتها ، لا عقدة نقص تقيدها ولا وشاية فاسق تودي بعلمائها ، بالرغم من ذلك بقيت الشيعة حذرة متخوفة من الحكم الجديد الغريب ، فكانت تعمل كلما سنحت لها الفرصة على الثورة ، وما ثورة بنت جبيل سنة ١٩٣٦ ببعيدة عن الازهان . ولكن عندما اتجهت البلاد نحو الاستقلال وقفت الشيعة مؤيدة ومناصرة باذلة كل جهد في سبيل ذلك .

وضع الشيعة في لبنان :

اذا كانت الشيعة قد الحقت بمتصرفية جبل لبنان سنة ١٩٢٠ ، فانها لم تلحق بلبنان ، لأنها كانت دائما عبر القرون الطويلة التي مرت ، هي لبنان ، هي المدافعة وهي المحافظة بذلت دمها في اراضيها من شماله الى جنوبه ، ومن ساحله وجبله الى داخله تراب لبنان مجبول بدماء الشيعة ، حتى قيل :

« ان جبل عامل لم يسالمة احد من جيرانه الا البحر الابيض المتوسط » .
(عبد الله السبيتي) . واذا كان القدر قد شاء ان تكون الشيعة في مناطق الحدود ، فقد شاء لها القدر كذلك ان تكون حامية هذه الحدود .

محمد علي مكي
